عن المركز :

مركز المنبر للدراسات والتنمية المستدامة، مركز مستقلٌ، مقرّه الرئيس في بغد اد. رؤيته الرئيسة تقديم وجهة نظر ذات مصداقية حول قضايا السياسات العامة والخارجية التي تخصّ العراق بنحو خاصٍ ومنطقة الشرق الأوسط بنحو عام –فضلاً عن قضايا أخرى- ويسعى المركز إلى إجراء تحليل مستقلّ، وإيجاد حلول عمليّة جليّة لقضايا تهمّ الشأن السياسي، الاقتصادي، الاجتماعي، والثقافي.

ملاحظة:

الآراء الواردة في هذا المقال لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المركز،إنما تعبر فقط عن وجهة نظر كاتبها.

حقوق النشر محفوظة لمركز المنبر للدراسات و التنمية المستدامة

www.ALMANBAR.ORG

INFO@ALMANBAR.ORG

وجه العلاقة بين التركيز الذهني والنجاح

محمود سريع القلم: أستاذ العلوم السياسية والعلاقات الدولية بجامعة بهشتي الإيرانية

قسم الأبحاث والترجمة

من الشروط الأولية التي تمهّد لإحداث التنمية في مجتمعٍ ما، هي تلك الفرصة التي تُعطى لِلأفراد لِيُنمّوا من خلالها الجانب «المتميّز» فيهم ولِيكتشفوا مواهبَهم. وبمقدار ما يزداد تدخّل الدولة في شؤون المجتمع تتضائل فرصة النموّ الفردي والتميّز لدى الأفراد. [على سبيل المثال] قررت الحكومةُ الصينية قبل أربعين عاماً أن تمنح النّاسَ فرصة التميّز في النشاط الاقتصادي، والنتيجة التي ترتبت على ذلك هي نموّ الناتج القومي لِلفرد مِن مئتَي دولار إلى عشرة آلاف دولار! باعتماد مثل هذه المقارنة المرجعيّة (Benchmarking)[2] عند تقييم البلدان يتضح واقعها الاقتصادي والتنمويّ بنحو جليّ. وإنَّ هذا الأمر بحدّ ذاته يُعدّ دليلاً على أنَّ الولايات المتحدة، (حتّى لو قورنَت مع اليابان وألمانيا وبريطانيا)، تمثّل المجتمع الأكثر إبداعاً في التاريخ.

على كلّ إنسان أن يوضّح مسيرته وأفقه [في الحياة]، وألا يعوّل على قرارات الدولة وسياساتها، وأن تكون له فسحة كبيرة من حريّة العمل لِيجتهد وليحقق أهدافه، وألا يخشى من أن تتبلور لديه أفكار جديدة، وألا يخف من الوقوع في الخطأ والهزيمة وتجاوز الصعاب والمشاكل. لِمعرفة مثال حول ذلك حسبنا أن نقرأ تاريخ صناعة الطائرة في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. لقد بذل نحو 2000 شخص جهوداً مضنية على مدى عشرين عاماً ليتمكّنوا أخيراً من إطلاق الطائرة والتحليق بها في السماء. وفي أثناء هذه الجهود وطوال هذه المدة لم تتدخل الحكومات ولم تعرقل عملهم أيّ جماعة وفئة. كلّ ما هنالك كانت هنالك بعض المصارف وبعض الأفراد الذين كانوا يرومون «التميّز»، وهم من دشّنوا قطّاعاً في عالم التصنيع عُرِف بـ«صناعة الطائرات.»

على الرغم من أنَّ لِلأوربيين في العلوم التجريبية العديد مِن العلماء منذ بداية القرن الثامن عشر وما بعده فإنَّ عموم التقنيات انتقلت من «العِلم والتنظير» إلى «الإنتاج» وتحققت في الولايات المتحدة؛ فاكتشاف الكهرباء ووصولاً إلى تقنية الطباعة ثلاثية الأبعاد كلّ ذلك قد جرى في أربعة أحقاب من تاريخ التصنيع في الولايات المتحدة. وفي مثل هذه البلاد بإمكان «فريد زكريا [3]«الهندي و«إدوارد سعيد» الفلسطيني و«هنري كيسنجر» الألماني و«دارا خسروشاهي [4]«المولود بطهران، و«إيلون ماسك» المولود في جنوب أفريقيا أن ينالوا فرصة بلورة المواهب و«التميّز». ورغم أنَّ دولاً مثل كندا وبريطانيا وأستراليا أيضاً تمتلك هذه الميزة، فإنّه لا يوجد أيّ بلد آخر مثل الولايات المتحدة في منح الأفراد هذا القدر من الفرص لتنمية المواهب في العِلم والفن والرياضة والتجارة والسياسة والإنتاج، وتحفيز كلّ القدرات الذهنية والباطنية لديهم. في مثل هذا البلد لا يأبهون بدين الفرد وجنسه وعرقه وثقافته ومكان ولادته ولهجته وأطباعه؛ بل أن ما يهتمون به ويسألون عنه هو: ماذا تَعلَم؟ وما الموهبة التي تتميّز بها؟ وما العمل الذي بإمكانك ممارسته بمنتهى الدقة والإتقان؟

وبالطبع إنَّ معاملة الإنسان بهذه الطريقة تأتي من التعاريف الخاصة التي تتبنّها الفلسفةُ والثقافةُ السائدة في المجتمع، والتي تكون راسخة وقارّة في باطن النظام الاجتماعي والاقتصادي وفي لاشعوره. على سبيل المثال روسيا على مدى تسعة قرون من ماضيها وتاريخها، وعلى الرغم من سعة مصادرها الطبيعية وغناها المنقطع النظير لم تستطع في أي حقبة من أحقابها أن ترسّخ مثل هذه الثقافة. ففي روسيا القيصرية، أو في الاتحاد السوفيتي، أو في روسيا الاتحادية نجد الفردَ عادةً منهمكاً بتطابق فكره وسلوكه مع الدولة ونظام الحكم، ومثل هذا الواقع لم يفرز أيّ مخرجات سوى الخوف والنكوص والتراجع.

وفي الصين وإندونيسيا وسنغافورة وفيتنام مُنحَ الأفرادُ الفرصةَ في المجال الاقتصادي على أقل تقدير، وحصلوا على نتائج واضحة. ففي سنغافورة مثلاً يتعاون المسؤولون في المدارس الثانوية مع أولياء الطلّاب ليضعوا خطّةً من أجل رصد مواهب الأفراد وهم في الرابعة عشرة من أعمارهم، وثمَّ يدعمونه في عملية إنماء تلك الموهبة. فإذا ما كان الطالب يمتلك موهبةً في مجال فنّي لا يجبرونه على إكمال دراسته في مجال هندسة الكهرباء، وإذا كان ثمّة طالب يمتلك موهبةً خارقة في لعبةٍ رياضية ما لا يرغمونه في المجتمع وفي الأسرة على أن ينال شهادةً في الطب. فمثل هذا النظام التعليمي يتيح لأيّ فرد أن يجد فرصةً لإنماء مواهبه. والنتيجة المترتبة على ذلك أنّ سنغافورة، بسكّانها البالغين 5.5 مليون نسمة، وبمساحةٍ جغرافية تعادل مساحة مدينة طهران، ورغم عدم امتلاكها أيّة موارد طبيعية، تحقق ناتجاً محليّاً إجمالياً يفوق الرقم المتحقق في إيران!

لقد تعلّم كاتبُ هذه الأسطر -منذ أن كان طالباً في الثانوية- أنَّ القسم الأكثر تشويقاً والأغنى بالمعلومات في متاجر بيع الكتب هو قسم السير الذاتية(Biography) ، حيث يعرض المؤلفون لِقرّائهم، وفي كتبٍ تتراوح بين 200 إلى 300 صفحة، عشرات الدروس والأسرار الخاصة بالحياة. وعلى مدى عشرات السنوات وبمطالعة مئات الكتب الخاصة بسير العلماء والمخترعين والفنانين والسياسيين والاقتصاديين لمستُ في هذه السير الذاتية، وعلى اختلاف أنماطها ومحتوياتها، عاملاً مشتركاً باعثاً للتأمل، وهو أنَّ الأفراد الذين حققوا نجاحاً في الحياة، والذين حصلوا على أجوبة في مسار حياتهم، وأبدعوا، وشيّدوا، وفكّوا عقدةً، وتركوا إرثاً، ووضعوا لبنةً على لبنة، كلّ هؤلاء، إلى جانب العديد من الخصال المشتركة تميّزوا بخاصية مشتركة فريدة، وهي أنّهم كانوا يُعرَفون بـ«التركيز» في عملهم ونشاطهم وحياتهم. فمن دون التركيز لا يمكن لِلفرد أن يتميَّز، ولا يمكن تخطّي مرحلة لِترك أثر يُذكَر. إذ أن التركيز واتّباع نظام معيَّن والصمود والاستمرارية والتحلّي بالصبر وعدم الملل وامتلاك أفق رحب وتحمّل الصعاب والثقة بالنفس، كلّ ذلك هي عوامل ضرورية لنموّ الفرد والمؤسسة والشركة والمجتمع والبلد. وإنَّ شكل النظام الاجتماعي والحكومي حاسم جداً في تحقق هذا المبدأ.

في العديد من دول العالَم الثالث نجد مؤسسةَ الدولة تشكّل العائق الرئيس والأكبر أمام تقدّم الأفراد وإبداعهم. بيد أنّ معظم الدول الأسيوية رغم كونها غير ديمقراطية، فإنّها على أقل تقدير تتيح للناس حرية النشاط الاقتصادي. أمّا منطقة الشرق الأوسط فإنَّ من سماتها هي الرغبة الشديدة -والراسخة ثقافياً- في السيطرة على الأبناء والموظّفين والمواطنين وعلى أيّ مجموعة خاضعة، وهذا بطبيعة الحال يؤدّي إلى أن تكون إبداعات الأفراد في أدنى مستوياتها.

إنَّ تكوين المجتمع ونظام الحكم من شأنه أن يكون عائقاً ومحفّزاً في آن؛ [على سبيل المثال] في أثناء سباقات الخيل يضعون غطاءً من الجلد (Blinders) على عينَي الفرس لكي لا يرى شيئاً سوى أمامه، ولا يلتفت يميناً أو يساراً في أثناء الجري، وبذا يركّز طاقته للسير إلى الأمام ونحو الأفق الماثل أمامه.

إذا عجز فردٌ ما، أو شركةٌ أو حكومةٌ عن إيجاد ترابط معقول بين الموارد والطاقة والمواهب من جهة، والدقة والتنظيم والتخطيط واستشراف المستقبل والإنتاجية من جهة أخرى فمن الطبيعي أن يظلّ واقعهـ/ـا متأرجحاً دَوماً بين الصعود والنزول وعدم التوازن، بل في هرج ومرج دائم. فمن دون تحديد الأولويات وتنظيمها بإتقان لا يمكن التوصّل إلى نتائج ملموسة من العمل والحياة. ومن هنا يتحتَّم على الأفراد والشركات والحكومات أن يستخدموا في كلّ يوم مفردة «لا» عشرات المرّات ليظلّوا ثابتين في مسارهم المدروس والمخطَّط له.

لقد أعلنت الحكومةُ الإيرانية في بدايات السبعينيات أنَّ على البلد أن يؤدي دَوراً مهماً في بسط الأمن في المحيط الهندي. وكان مثل هذا القرار يأتي في ظلّ حرمان أزيد من ستة آلاف قرية من الماء الصالح للشرب في أرجاء إيران، وحتّى أن نصف أعداد النساء في عموم إيران كنّ يعانين من مشكلة الأميّة.

كيف يمكن تحديد الأولويات؟ ما هي الأولوية رقم واحد ورقم اثنان ورقم ثلاثة في البلد؟ ما هي أولويات بالنسبة للقطاع الاقتصادي؟ ما هي الأولويات بالنسبة للفرد؟ كيف يتسنى لِلفرد أن يحقق شيئاً في حياته وأن يركّز ويكون منتجاً إلى جانب انهماكه بعشرات المهام الأخرى؟ كيف يتم التخطيط لميزانية البلد؟ يقول البريطانيون بأنَّ من الطرق المعتمدة في معرفة شخص ما هي معرفة الطريقة التي ينفق فيها أمواله. لماذا تُعدّ سويسرا بلداً مميزاً؟ لأنّه بلدٌ يعرف حدوده وإمكانياته. لماذا تعاني روسيا من المشاكل؟ لأنَّ لها مزاعم وأهداف تفوق إمكانياتها الاقتصادية. لماذا تواجه الشركات الإفلاس؟ لأنّها لم تحدد أولوياتها، ولم تدرس الظروف والواقع بنحو دقيق، ولا تخلق توازناً بين الموارد والأهداف. لماذا يواجه كثيرٌ من الأفراد مشاكل جمّة عندما يجنون ثروةً كبيرة في ليلة واحدة؟ لأنَّهم لم يسيروا على مسارات صحيحة.

من الـمَلاحِظ المهمّة التي سمعها كاتبُ هذه الأسطر من وزير الخارجية الألماني الأسبق هانس ديتريش غينشر (Hans-Dietrich Genscher) هي أنَّ السياسيّ عليه أن يعرف الوقتَ المناسب لِلتنحيّ عن السلطة. لما كان غينشر في ذروة قوّته، ولـمّـا توحّدت ألمانيا (الشرقيّة والغربيّة)، ولما بات يُعرَف لدى الجميع بِعرّاب وحدة ألمانيا، تنحّى عن منصب وزارة الخارجية. هذا هو الفرق بين السياسي الألمانيّ والسياسي في العالَم الثالث: ففي العالَم الثالث معظم السياسيين يحبّون العملَ السياسي لأنَّهم يرومون الحصول على حياة جيّدة. ولكنَّ العمل السياسي في ألمانيا يعني معالجة المشاكل والأزمات وفكّ العُقَد.

وإنَّ نيلسون مانديلا، على الرغم من إصرار النخب السياسية وعامة الشعب، امتنَعَ عن المشاركة في الدورة الثانية من رئاسة الجمهورية، وقال في حينها: دَورةٌ واحدة (لخمس سنوات) تكفي للانتقال إلى الجمهورية. فإنّي أريد أن أقوم بعمل لِلصالح العام، فليأتِ الآخرون لإدارة الأمور.

إنَّ معرفة الأولويات والمحافظة على التركيز يُعدّ عملاً فنياً خارقاً يقوم به الإنسان. وهذا ما جعل مانديلا شخصية مخلَّدة على المستوى العالَمي. لأنّه علم أنَّ «تميّزه» يكمن في بقاءه خارج السلطة. فإذن كم من الأفكار والاستشارات والدراسات والعصف الذهني والنقاشات والمناظرات ومطالعة الكتب يجب أن يقوم بها الفرد أو الشركة الاقتصادية أو المنظّمة المدنية أو الحكومة ليتسنّى بلورة المعادلة الكفيلة بتحقيق «التميّز» و«التركيز»، ومن ثمَّ الحفاظ على ذلك التركيز عبر التقييم والمتابعة (Navigation)الدؤوبة لِلظروف المحيطة بالواقع. إنَّ الذهن المشتَّت يمثّل العائق الأكبر والداء العضال لِلنموّ، لأنّه يحدّ من تركيز الطاقات. وإنَّ تشتت نشاطات مؤسسة الدولة أيضاً لا يؤدي إلى نجاحها.

كيف يمكن الحدّ من تشتت ذهن الأفراد والنظام الاجتماعي؟ تفيد التجارب البشرية أنه بمقدار ما يكون استقطاب الموارد البشرية وخلق فرص العمل بيد القطّاع الخاص فإنّه بالقدر نفسه يتعلّم الأفرادُ والنظام الاجتماعي كيفية إيجاد التوازن بين الموارد والأهداف. فالقطّاع الخاص هو مَن يَعرف «النظامَ» بإتقان، ويَفقه معنى الوقت والزمن، ويتوخّى الترشيد في استهلاك الموارد، ولا يحدد هدفاً خارجاً عن الواقع، ولا يخشى من الاعتراف بالخطأ، ويصدّر السلع إلى الدول المجاورة، وبعد ذلك ينتقل إلى دول أبعد مثل بوليفيا، لأنَّ مسألةَ الكُلَف مسألة حساسة وخطيرة. وفي ظلّ هذا القطّاع يبدأ العمل من الثامنة صباحاً، والمواردُ البشرية والكوادر الوظيفية لا تذهب لِلعمل وبيدها رغيف الخبز، لأنَّ الجميعَ يتناولون وجبة الإفطار في منازلهم. وإنَّ مثل هذا القطّاع مسؤول أمام أصحاب الأسهُم، وإذا كان أحد المدراء غير متخصص في عمله عليه أن يستقيل؛ والمسؤولون في مثل هذه الظروف لا يتخذون القرارات بعواطفهم، بل يعتمدون الأرقامَ والإحصائيات، ويفكّرون دوماً بالمستقبل، ويدركون معنى التنافس، وإنَّ رضا الزبون بالنسبة لهم أمر في منتهى الجدية والأهمية. فإذا كذب وخدع الآخرين سيفقد اعتبارَه وأسهمه في السوق؛ كلّ ذلك يعني أن المسؤول في مثل هذا القطّاع يدير الأمورَ في ضوء الواقع. لعلَّ أفضل شاهد على صحة هذا التحليل هي المكانة التي تتبوأها ألمانيا والصين واليابان وكوريا الجنوبية في النظام العالَمي. لأنَّ السياسات العامة وتحديد الأولويات والطريقة الناجعة في استهلاك الموارد الطبيعية في مثل هذه الدول يتم بتأثير من المؤسسات والشركات الاقتصادية. وإنَّ التركيز الذهني والعملي في الاقتصاد على مدى تاريخ هذه الدول قد انتقل إلى التركيز الذهني والعملي في عالَم السياسة. وبهذا ينشأ المواطنون في مثل هذه البيئة بأذهانٍ قادرة على التركيز.

[1]http://irdiplomacy.ir/fa/news/2022564

[2]المقارنة المرجعية(Benchmarking) ، عملية قياس أداء الشركة ومقارنتها بأفضل أداء لشركات أخرى في نفس المجال، وذلك للاقتداء بأفضل التطبيقات. وتتضمن هذه العملية مقارنة المنتجات والأساليب والبرامج والاستراتيجيات المستخدمة والأبعاد التي تقاس عادة هي الجودة والوقت والتكلفة. ومن ثم يتم العمل على تطوير الثغرات التي تم اكتشافها خلال عملية المقارنة للوصول إلى النتائج المرجوة.

[3]فريد رفيق زكريا (و: 1964)، صحفي ومؤلف أميركي. يعمل مقدماً لبرنامج فريد زكريا جي بي إس الأسبوعي على قناة سي إن إن، ويكتب في صحف واشنطن بوست ونيوزويك وهو محرر طبعتها الدولية، ومحرر بارز في مجلة التايم.

[4]دارا خسروشاهي (و: 1969)، رجل أعمال أمريكي إيراني، والرئيس التنفيذي لشركة أوبر، والرئيس التنفيذي السابق لمجموعة إكسبيديا التي تمتلك العديد من شركات السفر، وعضو في مجلس إدارة بيت دوت كوم، هوتيل دوت كوم وشركة نيويورك تايمز.